العمران . إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم فى كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب فى أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى اللهَ عليه وسلم) واللهَ نَسأل أن يُجَمِّل حالنا بالسِّتر الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا ربّ سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفرده لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفَرَنْجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفْرِيقِيَةَ . كان الرشيد يومَ وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة[1] قد استدعانى إليه فأصبته فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمراً عظيما ، فاستدنانى[2] إليه وقال إنّا أتانا من ملك الفَرَنْجة رسولٌ يُقْرِئنا منه السلامَ ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحجُّ إلى بيت المقدس من ملّته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائفَ نروم منه أنْ يتقبلها فى سبيل المودّة لغاية نرغب فيها إليه هى التعصُّب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ،[3] فإذا وافقنا على

---

(١) هذه اللفظة لقب رومى للقياصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت فى ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظة انبرور بحذف الذال وهى تشبه أن تكون منقولة عن الفرنساوية (٢) فى الأغانى ٤ : ٤٨ أن الخليفة يستدنى من يحبه (٣) راجع المقرى وابن الاثير تجد كلاماً مطولا فى هذه الحروب

ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة ، واجهَد فى أن تسترقَ قلبه بخلابة لسانك ، وتقدَّمْ إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفِّيه حقَّه يوم الفتح ، ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونُجرى الأرزاقَ الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحبْ معك هذا اليهودىَّ الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مُتْرَف جليلُ القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدّمنا إلى مسرور أن يُصْحِبَك بالخُدَّام مع الدوابِّ والخيام إلى بَيْروت من ساحل الشام ، فاذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرْنا الليثَ أن يوجِّه معك طائفةً من الحرس إلى عَيْذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافِقُنا حاجِّين ، فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحِراسة ، ويهدى قلبَك الصوابَ وهو ولىّ التوفيق .

فلما أذِن لى بالانصراف أتيت البرامكةَ لأستطلعهم رأيهم فى المصلحة فلقيت جعفراً متنزهاً فى البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال اخرُج عما بنفسك وحدِّثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنَّى ذلك ؟ فقال علم الله أنى أنا الذى أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرَنْجة رسولَ خير ومودة وسلام . ثم أومأ إلى الجلاّس فتنحَّوْا عن موضعنا فاستدنانى إليه وقال بم أوصاك ؟ فقلت بكذا وكذا من الأمر ، فوجَم ساعة ثم قال سبحان الله إلامَ يتمادى به تغريرُ القتال ؟ لقد أشرت عليه بأن يعدِل عن مناجزة الأمويين ، لأن لنا فى الشرق ما يشغَلنا عن قتالهم ، وفى الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة فى كل حين ما ان ضعُفنا عنهم مرة

واحدة فسدت دولته فساداً لا تقوم لها من بعده قائمة . وان يكن الرشيد عن موعظتي غنياً بما عنده من العقل والعلم فانّ الملوك قد تطمح نفوسهم إلى ما وراءه الشرُّ من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ » ،(١) فالنا وللأمويين وقد كفانا الله شرَّهم ، فان كانوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحَرَب الى ما وراء البحور ، وليس لنا أن نُلْقِيَ برجالنا في المواضع المُحْجِفة ونوردَهم موارد الهلاك ، فاني أرى الجند يتفانَوْن قبل الاشراف على تلك المتالف ، كما اني أحسَب الأنبرذور على ما يؤثر عنه من إيثار الرفق ولزوم التؤدة بعيداً عن موافقته على ما يروم من الايقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون في ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد عَمَروا أمصارهم ودوّنوا دواوينهم وشكّوا في حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعُدَّة والكُراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم شَيْبُ الغراب ،(٢) ولقد كان أولَى بالرشيد أن يرَى دول الأندلس درعاً منيعاً للاسلام وسيوفاً مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمَنْ إنْ أرسل الجند أن يخونه القوادُ أو مات الأنبرذور عن خَلَف لا يرعَى العهودَ أن يوجه من يقبض على عمّالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فان رغِبَ عما فرَط منه وإلاّ فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ أمنيته .

---

(١) سورة المائدة (٢) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق الى الأندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أحبوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبقى الرمق وبلغ استقتالهم في سبيل الملك الى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر « ابن الاثير ٦ : ٤ »

فلما كان الغدُ بكَر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام وَيَمْحَضُه الرأىَ والنصيحة ولكن من غير أن يقوّم ما بنفسه من الميل ويعدِل به عن ركوب هذا المركب الوعر. فاستدعانى إليه وسلمنى كتابه إلى الأنبرذور وأمرنى بأن أتجسَّسَ أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت. وأوصانى برجل من الأمويين فى دِمَشْق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يُخْشَى منه استمالةُ أهل الشام إلى الفتنة رفعتُ ذلك إليه ليتدبر أمره،[1] ثم قال وإذا مثلت بين يديه «يريد قيصر الروم» فقل له عن أميّة إنهم قومٌ قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادة وسعَوْا فى الأرض فساداً وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبى صلى الله عليه وسلم. ثم أذِن لى بالانصراف، وكان يظهر من الميل الىّ وجميل العطف علىّ بحيث كان يدعونى بلفظة الحبيب[2] كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

وكان فى لطائف الخليفة إلى الأنبرذور فيلٌ عظيم أبيض كان عند المهدىِّ (رحمه الله) أرسله له بعضُ ملوك الهند،[3] وثياب فاخرة من الوَشْىِ المنسوج بالذهب، وبُسُط ديباج من طَبَرِستان، وأعطار من اليمن

(١) ذكر الاتليدى ١٢١ والابشيهى ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموى فليراجعها هناك من أحب (٢) ذكر الأغانى ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه ياحبيبى ونقل صاحب العقد من نوادر اسحق انه لما دخل على المأمون استدناه اليه فدنا منه قال اسحق فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضننى بيديه وأظهر من اكرامى وبرى مالو أظهره صديق لى مواس لسرنى ٣ : ٢٤٠

(٣) ذكره الأغانى ٩ : ١٣٦

والحجاز، ومسك وصندل وأعواد نَدّ من الهند، وسُرادق عظيم مجلّل بأنواع الحرير وكلاليبُه من الذهب الملبّس بالوَشْى، ومِزْوَلة كبيرة تدل على الأوقات فى ليل ونهار، وهى من عمل صُنّاع بغداد، وشِطْرَنج بديع الحسن قد اتخِذت أدواته من العاج المنقوش، صَنَعَهُ نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تُمَثِّل الشاه، وهى من الحسن بحيث إنّ الناظر إليها يُكْبِر صناعتها وقد مثّل فيلا يلُف خُرْطومه على فارس وعلى رأسه جندىّ قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فُرْسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هَوْدج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حِمْير،[1] وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الحِذْق ما يستحق عليه الثناء، لأنه مَثَّل أصحابَ الفيلة كما هم، وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساورَ وعلى أبدانهم القَراطق وهى لباس الهنود، واتخذ عُدَدَ الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والأزمّة، وقلّد الفُرْسان شيئاً من السلاح ما عدا الجندىّ الذى أخذه الفيل بخُرطومه فانه يعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه، وقد طُرِح سلاحُه على الأرض وعليه سِمَةُ التوجع والانكماش[2] مما يشهد للممثِّل بأنه من مَهَرة الصناع.

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رُسِم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دِمَشْق ثم إلى بَيْروت على ساحل البحر، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقاً بالفيل

(١) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥ (٢) هذه الأداة لم تزل الى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك

والدواب المثقلة بالأحمال، فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التى مصَّرها الحَجَّاج ،[١] وهى بمنتصَف ما بين بغداد والكوفة ،[٢] ثم عطفنا إلى الأنبار ،[٣] ثم إلى مدينة الكوفة فنزلت بها فى رَحْبة خُنَيْس الأنصارى من أجداد أستاذى أبى يوسف رحمه الله[٤]، وهى فى مقابلَةَ الباب الكبير المعروف بباب الفيل ،[٥] وقد طاب لى المُقام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت[٦] (شرفهم الله) ولا سيما فى قوم كِنْدَة من ملوك النصرانية ، وهم من غُلاة الشيعة [٧] وأكثرُهم عالمٌ وحكيم وأديب ، كان بيتهم معدِنَ العلم ومظهر الحكمة ، وقد لقِيت منهم إسحق الكِنْدِىّ وهو عامل الرشيد على الكوفة ، قلّده الامارةَ بايعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة ،[٨] ويبغون من إلْفِ الرعية فيما بينهم تعظيمَ الاسلام فى انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد جرَوْا فى ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله) وهو الذى قرَّب بعض النصارى إلى أبى جعفر كما تقدم فى موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق ،[٩] وهى ذات ماء وشجر ونخيل ،[١٠] وقدَّرْتُ أن تكون فى الكِبَر كنصف بغداد ، فحَق تسميتُها بالكوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم تكوَّف الرمل إذا ركِب

---

(١) القناوى ١٣٥ (٢) ياقوت ٢٤ : ٨٨٣ (٣) المسعودى ٢ : ١٤
(٤) ياقوت ٢ : ٧٦٢ (٥) الأغانى ٥ : ١٦٦ (٦) هذا معروف فى كتب المؤرخين وذكر أبو الفداء ٢ : ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل مع الأمام على كرم الله وجهه (٧) الوطواط ١٢٥ (٨) المحاضرة ٢ : ٨ (٩) ابن جبير ٢١٣
(١٠) القناوى ١٣٦

بعضه بعضاً ،[١] وقد زارنى فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ، ولكنى لم يتهيأ لى زيارتُهم لقِصَر الوقت ، ولقد وجدت إسحق أميرَهم من العلم والعقل بالموضع الذى أكتفى من الدلالة عليه بأن آسَفَ لبُعْدِه عن الاسلام . وهو يسكُن داراً مباركة تعزَى إلى عَقيل بن أبى طالب ،[٢] وهى بازاء المسجد المبارك الذى قال فيه بعض الصالحين إنّ ركعتين فيه تعدِلان عشراً فيما سواه من المساجد ، وإنّ البركة منه إلى اثنى عشر ميلا من حيث أتيتَه ،[٣] وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر فى عُمُد المساجد كلِّها ما هو أطولُ من عمده[٤] ثم زرت مشهد علىّ عليه السلام[٥] وتبركت به وقرأت عنده شيأ من القرآن .

ولما انفصلتُ عن الكوفة تخلّفتْ عنى الدوابُّ المحمَّلة، فانقطعت فى الفلاة مع جماعة من الحرس، ورحنا نقطع القفر بعد القفر، حتى إذا عظُمت علىّ مَشقّة السفر تذكرت طِيبَ بغداد وظرائفها[٦] وحننت إلى مجالس البرامكة والدارُ عندهم جامعة ، وأوقاتُ الأنس بها رائعة ، فكنت أقول متمثلا بكلام إسحق النديم[٧] .

---

(١) تقويم البلدان ٣٠١ (٢) الأغانى ٤ : ١٨٢ (٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥ (٤) ابن جبير ٣١٣ (٥) تقويم البلدان ٣٠١

(٦) القزوينى والأغانى ٥ : ٩٤ و ١٧ : ٧ وفى غير موضع (٧) الأغانى ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت فى صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت فربما لم يكن الشعر له بل كان من نظم اسحق لأنه كثيرَ ما كان يذكر بغداد ويتشوق اليها وهو فى أسفاره مع الرشيد ويقول

ذكر الأحبة فاستحنّ وهاجه للشوق نوح حمامة وحمام
لم يبد فى الصدر الا أنه حيا العراق وأهله بسلام

على أهل بغـــدادَ السلامُ فانني أزيد بسيري عن ديارهِمُ بُعـدا
إذا ذكرتْ بغدادَ نفسي تقطّعت من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

ولم أزل مجدًّا فى السير حتى بلغتُ دِمَشْقَ فى اثنتى عَشْرَةَ ليلة ،[1] ولو أنى سرت تحت جَناح الليل لبلغتها فى ثمانية أيام[2] فما دونها ، فنزلت فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشىّ العدوىّ[3] فى دار بناها عويمر أبو الدَّرْدَاء ، وهو أول من وَلِىَ القضاء بدِمَشْق ، وكان القضاة قبله يسكنون قصرَ الحَجّاج[4] المعروفَ بالقصر الكبير .

أمّا الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وفيرة الغلّات ، إلاّ أنها نـكِدَةُ الحظ فى تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلّت عِمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قُبَيْلَ أن ظهر الاسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب التى تسعّرت نيرانها بين بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين للروم ، فانتقض عمرانها ودرَست سبُلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت فى عظمة لم يكن مثلُها فى الدول إلا قليلا ، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النَّفاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رائجة فدرَست تلك المحاسن وتقلّصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غيرُ رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وانما دعا أهلَها إلى الفساد وجلب عليهم المَذَلّة وطمح بأبصار الملوك إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان فى نفوسهم من التحزب

---

(١) الأغانى ٥ : ١٦٦ (٢) الاتليدى ٢٦٣ (٣) قضاة الشام
(٤) الاتليدى والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشدُّ من الفتنة ، [١] فكان ظهور المرسلين فيهم سبباً لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد . وهذا هو الأمر الغريب الذى لم يُسْمَع بمثله فى البُلْدان ، فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبيين وموطِن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس فى شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتاً من شَمْلهم ومتفرقاً من كلمتهم وأغراضهم ، إلاّ أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألّا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لا تحصل ، إلّا بالاجتماع والعُصْبة ، سنةَ الله فى خلقه . أنظر إلى الدول الرومية كيف عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ . وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلاّ عند ما تخالف عليها صِبْيَتُهُم [٢] فيما يرمون إليه من طمع النعيم ، وانظر إلى أهل البيت السلالةِ الشريفةِ والذُّريَّةِ الصالحةِ كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرَّقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة ، فلما اجتمعوا فى المغرب إلى إدريسَ بنِ ادريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجُف له الشرقُ ،

---

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والاسلام فان مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريدان به الى يومه مثل ذلك (٢) ذكر صاحب العقد الفريد انه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا .

فان تنظر الى ذلك كلّه وإلى كثير مما وقع وما هو واقع فى الممالك تجدْ أنَّ الأمم لا تقوم دولهم إلاَّ برابطة الاجتماع والعَصَبيَّة ، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال يُنْذِرْ أمرُهم بالانحلال وتتداعَ أحوالهم إلى الاضمحلال .

وصف دمشق وأنها بهجة البلدان

ولما وفدت على دمشق وسرَّحت الطَّرف ناحيةَ الغُوْطة امتلأت عينى من خضرة الأرض حتى تخيّلت نفسى فى جنة من جنات السماء ، ولا غرو فانّ مياهها وأشجارها ورياحينها لأفضلُ مافى الدنيا من المُتَنَزَّهات ،[١] يسير الرجل فى رياضها يومَه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضِه على بعض ، وهى فى أسمى مقام بين مدن الاسلام : بعد دار السلام . قد اشتبكت فيها العمارة[٢] وتنزهت عن المِثْل فى النضارة . لكنها ليست بالمفرطة فى الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميلَ منها إلى العرض ،[٣] وهى لاتخلو من السِّقايات[٤] فى أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقَات فوق طبقات[٥] وتحتوى من الخلق على العدد الكثير ، والناسُ على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عاداً أولُ من نزلها من الناس وإنها هى إرَم ذاتُ العِماد ،[٦] ومنهم من يذهب إلى أن بانيَها الغادرُ غلام

---

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩ (٢) القزوينى ٢٦ (٣) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرى ٣٠ وابن جبير وابن بطوطه وياقوت ٢ : ٥٩٠ (٥) ابن جبير ٢٨٥ (٦) ابن خرداذبة ٧١ القرمانى ٥ : ١١٨ والشريشى ١ : ٢٠٧

نمرود[١] أو دمشاقُ بن كنعان، ومنهم من يزعُم أنّ الذى اختطّها هو دمشقس مَوْلَى الاسكندر الرومى،[٢] ومنهم من يرى غير ذلك. إلاّ أنه ليس فيما يقولون حجةٌ ترجع بهم إلى محاسن التحقيق فى وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزُون بناءها إلى الروم، فان الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويلَ بعد أن أتى موسى كليمُ الله على ذكر دِمَشْق فى غير ما آية من كتاب التوراة. ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فى ذلك فإنْ هى إلاّ مدينة أوّلية[٣] قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جَفْنة وبنى أمية دهراً طويلا ونالت من العزة والعمارة ما قلّ أن يناله غيرُها من المدن، ولو كان البناء الذى شاده فيها الملوك من الحجر الصّلد ثم بقى ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دِمَشْقُ زينة الدنيا، ولكنّه شُيّد من طين ولَبِن فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثارَه[٤] فلم يبق منه إلا قلعةٌ من الحجر تُعزى إلى الروم[٥] وقصرٌ يُقال له قصرُ جَيْرُون عليه أبواب عجيبة من النُّحاس[٦] وبناء يقال له البَرِيص فيه كثير من العُمُد، وتزعم العامة أنه كان يجرى منه الشراب فى قديم الزمان إلاّ أن أركانه اليوم قيامٌ وقعود. وحيطانه ركّعٌ وسجود،[٧] وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز[٨] وللوليد بن عبد الملك[٩] وهما جميع ما تخلف عن ملوك بنى أمية، لأن ما نجا من مِعْول الزمان لم ينجُ من مِعْول أبى جعفر،[١٠] كما مرّ فى موضعه من الكتاب.

---

(١) الكنز ٢٣ (٢) القرمانى ٥ : ١٩٣ (٣) تقويم البلدان ٣٥٣
(٤) قلائد العقيان ٥ (٥) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣
(٦) المسعودى ١ : ٢٤٢ (٧) المسعودى ١ : ٢٩٧ (٨) ابن جبير ٢٩٣
(٩) المقدمة ١٥٤ (١٠) ابن الاثير والمسعودى ٢ : ١٤٣ والخميس ٢ : ٣١٤

ولقد وجدت أهل دِمَشْق أحسنَ الناس خَلْقاً وخلُقاً، يكرمون الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم فى صورة السائل،[١] ولو أن فقيراً أعرض عن كِسْرتهم لقالوا ويحَنا لو علم فينا خيراً لتناول من طعامنا،[٢] وقد بلغنى عن فضلائهم أنهم يزهدون فى الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين فى جبل لُبْنان،[٣] غير أنى لا أطْلِق هذه الروايةَ الاَّ على فئة قليلة من الصالحين، لأن جمهورهم مائل الى اللهو والطرب ولا سيما فى يوم السبت، فانهم لا يشتغلون فيه الاَّ بالمجون والتهتك، لا يبقى فيه للسيد حَجْرٌ على المملوك، ولا للوالد على الولد، ولا للرجل على المرأة،[٤] وهذا أمر غريب لم أره فى غير دِمَشْق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم فى ذلك، لأنى رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين فى المنازل والأحياء، قد تألَّبوا على كنيسة معظَّمة عندهم تعرف بكنيسة مريم،[٥] ويقال إنها من أعظم بِيَعهم بعد بيت المقدس.

وبقيت فى دِمَشْق ثمانيةَ أيام الى أن وفد الغلمان بالدواب المحمَّلة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الأموىّ الذى أتعب خاطرَ الرشيد أمرُه فلم أجد له غَرَضاً فى السياسة ولا هو طامح الى ملك ولا إمارة ولا يحدّث نفسَه بشىء مما يُقْلِق بال الرشيد حتى يخافَه على أمره، فأمسكت عن السِّعاية به لأنى رأيته وهو خِلْو من هذه الأغراض مثلَ التاجر الكثير المال والجاه ليس إلاّ، وقد تهيأ لى باستطلاع خبرِه أن أقف على سِيَرِ غيره من أقارب الخلفاء متابعةً لما نُقِل اليّ من خبره فوجدت فى الأولين عقلا وسياسة

---

(١) الابشيهى ١ : ١٢ (٢) ابن جبير ٣٨٨ (٣) ابن جبير ٣٨٩
(٤) القزوينى ١٢٨ وابن بطوطة ٢ : ١٩٧ (٥) ابن جبير ٣٨٥

إلاَّ أنه لما صار الأمر إلى صِبْيتهم المترَفين استرسلوا فى القَصْف والتهتك،[١] وعَكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية ، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثيابَ الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترَف ملوكهم الى الوليد بن يزيد[٢] وهو الذى أخذت الخلافة فى الانحلال بين يديه ، وتحرّك الدُّعاة عليه فى خُراسان بما وجدوا فيه من قلة الخِبرة بأمور الملك وعُكُوفِه على اللهو والطرب[٣] وقيام خلافته بين الكأس والوتر ،[٤] وقد استرسل فى التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده فى بيت المال ، لأنه أفرط فى الكرم افراطا فاحشاً حتى إنه لم يقل « لا » فى سؤال سئله ،[٥] وكان اذا وصل الشعراء عدّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألفَ درهم ،[٦] وكان يتأنق فى صنوف الملاذّ من المطعَم والمشرب والملبَس فيقال انه لبس القَلَنْسُوة من الوَشْى[٧] مُذْهَبَة ، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيِّرها فى اليوم مراراً[٨] لشغفه بها ، وكان يتختّم بالياقوت ، ووقع من خواتيمه الى بنى العباس[٩] خاتَم يساوى أربعين ألفَ دينار ، ويقال فى حسنه إنه كان اذا أُخْرِج من مَحْبسه أضاء المكان من شدة لمعانه . وكان يسترسل فى الطرب الى أن يوجِّه رُسُلَه[١٠] فى طلب المغنين من الحجاز وغيره ، فتجد أنه لم يثقُل أمره على الرعية من وجه واحد ، وانما هناك وجوه قد ساقت عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قِتْلة . هذه نُتَف من أخباره

(١) الأغانى ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم
(٢) الدميرى ١ : ٩٠ (٣) المسعودى ٢ : ١٤٦ (٤) ابن خاقان ٤٤ فى قصيدة ذكرها هناك (٥) أبو الفرج ٢١٠ (٦) الأغانى ٦ : ١٤٨
(٧) الأغانى ٦ : ١٤٦ (٨) الأغانى ٦ : ١٢٩ (٩) المستطرف ٢ : ٦٩١
(١٠) الأغانى ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودى ٢ : ١٤٦

حدثتنى بها مغنية كانت له يقال لها بَرْقُ الأفق ،[١] وهى اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر . وقد أخبرتنى فى بعض حديثها أن الجوهر كان فى صباها متداولا بين الناس ، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين ،[٢] وهذا شىء من الافراط فى الترَف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المُتْرَفين . ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بنى أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعبده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية .

ولما طال مُقامى بدمشق تهيّأ لى أن أزور أماكنها المشهورة ، فزرت موضعاً يقال إن هابيلَ وقابيلَ نزلا فيه ،[٣] وموضعاً يقال له باب الساعات[٤] يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارَةٌ تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى فى موضعه على الصخرة . وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرَّفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين[٥] فى جبل قاسيون ومقابرَ الشهداء[٦] وجبّانة الباب الصغير[٧] وبينها قبور ملوك بنى أمية[٨] متهدمةً والرخام عليها متكسر ،[٩] وزرت قرية فى سفح الجبل المذكور يقال لها بَرْزَة[١٠] يزعم الناس أنها مولد

---

(١) الأغانى ٣ : ٨٧ (٢) الأغانى جزء ٦ (٣) القزوينى ١٦٢
(٤) ياقوت ٢ : ٥٨٨ (٥) ابن جبير والشريشى ٢ : ٢٣٦ والطبقات ١ : ٢٩ والمسعودى ٢ : ٤٢ (٦) قضاة الشام (٧) ذكرها ابن خلكان
(٨) الخميس ٢ : ١٤ (٩) المسعودى ٢ : ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير ٥ : ١٣٠ (١٠) ابن جبير ٢٧٥

الخليل إبراهيم (عليه السلام)[١] حضين الملائكة، وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رضّ بها قابيل رأس أخيه هابيل[٢] ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم،[٣] وفي حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبياً ماتوا فيها من الجوع. وإني لأستحيي أن أنقل حديثهم كما قالوه فانهم يقولون سبعين ألف نبي[٤] كأنّ كل من عاش في الشام نبي أو ولي، وفي طرف الجبل مما يلي الغرب رَبوة[٥] يقول المفسرون إنها هي المذكورة في قوله تعالى «وآويناهما إلى رَبْوَةٍ ذات قَرار ومَعين» ويرد عليهم آخرون أن المراد بها بوة في الإسكندرية[٦] من ديار مصر.

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوَى إلى مغارة بجانبه، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرُمّان مشقوق،[٧] ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة في جميع جوانبه، ولا إشراق كاشراقه حسناً وجمالا واتساعَ مسرح للأبصار. وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة[٨] أكبرها نهر يزيدَ ونهر ثَوْرَى[٩] وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بَرَدَى وهناك بعض قرى مثل نَيْرَب ومزّ[١٠] والسهم وسَطْرَى،[١١] وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلاّ ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه،

---

(١) ياقوت ٢ : ٥٨٩ (٢) القزويني ١٢٦ (٣) ياقوت ٢ : ٥٨٨
(٤) القزويني (٥) ابن بطوطة ١ : ٢٣٣ (٦) المحاضرة ٢ : ٣
(٧) ابن جبير ٢٨١ والقزويني (٨) تقويم البلدان ٣٥٢ (٩) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨ (١٠) ابن جبير ٢٧٩ (١١) كليات ٢٠٢

وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثلُه صحةً وطيباً ،[١] وإلى ما يليها من طرف الجبل موضعٌ يقال له عين برما[٢] كان معموراً لأيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خُراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية كليل العين وبقي الأثر من عِمارته وذهبت العين .

ولقد كانت دِمَشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محْصاةٍ من فضلات العمران ويعيبها كثرةُ الوحول في أزقتها وتراكُمُ الطين في ساحاتها ، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في ازالة الأقذار[٣] منها وقاية من الطاعون الذي كان يقع بها تِباعاً في السنين السالفة ،[٤] وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشييدهم البناء على الهندسة التي لا نجد أعظمَ منها وقعاً في القلوب ولا أتمَّ حسناً وجمالاً في العيون ، كالذي يبلغنا عما بَنَوْه في الأندلس[٥] من القصور التي حارت في جمالها عقول الفَرَنْجَة ، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دِمَشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصُّفَّاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر ،[٦] وهي تتناهى في البهاء والاشراق الى أن يضرب بها المثل[٧] في احكام رسومها وجلالة بنيانها ، ولو لم يكن من تمام زينتها الا الأعمدة المزخرفة منصوبةً في أروقتها فُرادَى وأزواجا لكفى البصائرَ روعاً

(١) الكنز ١٤٤ (٢) المسعودي ٢ : ٨٣ (٣) أبو الفداء ١ : ٢٠٧
(٤) راجع ابن الأثير والمسعودي والعقد الفريد . وفي مروج الذهب من كلام عن الكوفة انها ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبائها ٢ : ١١٦
(٥) راجع المقري والعقد الفريد وابن الأثير (٦) الوطواط ١١١ (٧) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤

ووسع الأبصارَ ابتهاجاً . واذكر أنه لما أدخلنى صاحب الوقوف ربضها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة [١] لم يتحول نظرى عن القصر لما رأى من حسنه المفرط وأعجبتُ به من الزينة التى يُكْبِرها الناظر ويقف عندها وِقْفة الذاهل الذى به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقِباب رفيعة ورواشن [٢] مُخَرَّمة وخَرْجات مزينة وطيقان مجسمة بالجص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتَحِيرُه وتميل إليه الأبصار فلا تَمَلُّه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى

هو أفخر مأثُرة لملوك بنى أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكرُه ، وكان ذا همة فى تشييد العمارات والمساجد [٣] والقصور ، وقد شمِلت عنايته جميع البُلدان فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، [٤] حتى كان الناس فى أيامه إذا تلاقَوْا فى الأسواق والمجالس تساءلوا عن العِمارة وعن أىِّ بناء شَرَع فيه خليفتُهم ، كدأبهم فى التساؤل عن الخير والصلاة فى أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام فى أيام سليمان ابن عبد الملك ، وعن اللهو فى أيام الوليد بن يزيد ، وليس فى بلاد الاسلام كلِّها مثلُ هذا الجامع حسناً وإتقاناً [٥] وجمالَ رسم وتمامَ زخرفة وزينة ، وهو ماثل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيانَ الثَّوْرى أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألفَ صلاة [٦]

(١) الوطواط ١١١ (٢) ذكرها الاغانى ٥ : ١٠ (٣) ابن جبير وياقوت ١ : ٥٩١ وابن الاثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفدا ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزوينى ١٢٧ (٤) ٤ : ٢١٩ و ٢٢٠ (٥) ابن جبير ٢٦٣ والشريشى ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧ (٦) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ ابن جبير

كان موضعه قبل الاسلام بَيْعةً للنصرانية تعرف بكنيسة ماريحنا،[١] ومن قبل ذلك كان بيتَ عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عَنْوةً تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجَرَّاح صلحاً فانتهى إلى نصفها الآخر، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، فبَقِيَ نصفُها فى أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذى يهدِم بَيْعَتَهم يُجَنُّ ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يُجَنُّ فى سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده[٢] فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النصارى وعلا صياحهم ، فعوّضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بكنائس عدّة صالحهم عليها ،[٣] ثم وجّه إلى ملك الروم[٤] فى إشخاص اثنى عشر ألفاً من العملة والصُّنّاع والمرخّمين ، وتقدّم إليه بالوعيد إنْ هو توقف ، ثم أكمل هدمها سوى حيطانها، وأنشأ فيها القناطر وحلّاها بالذهب وعلّق فيها الأستار من الوشى والإبْرِيسَم ، وبقى العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مرخم يُجلَب اليهم الرُّخام[٥] والمَرْمَر من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور[٦] .

وقد غرِمَ الوليد فى هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنةَ مائة وأربعة وأربعين قنطاراً[٧] بالدِّمَشْقى ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار ،[٨] وقرأت فى بعض الكتب أن جملة المنفَق عليه كان أربعمائة صُندوق ، وفى كل

---

(١) ابن الاثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٢ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٩٨ (٢) ابن جبير ٢٦٤ (٣) الخميس ٢ : ٣١١ (٤) المقدمة ٢١٠
(٥) تقويم البلدان ٢٣٠ (٦) للسعودى ١ : ٢٧١ (٧) الخميس ٢ : ٣١١
(٨) ابن جبير ٢٦٣

صُندوق ثمانية وعشرون ألفَ دينـار، فى القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين. وكان المتولى على النفقـة عمرَ بنَ عبد العزيز[١] قبل أن يَلِيَ الخلافة، وقد اتخذ فى المسجد ستمائة سلسلة من الذهب[٢] للقنـــاديل والثريـات، وزيّن جدرانه بفصوص من الذهب والفُسَيْفِساء ممزوجةً بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثّل أشكالا من الرسوم لم يُرَ أبهج منها فى العيون، ورفع عُمُـده من الرُّخام المجزَّع طابَقًا فوق طابق،[٣] واتخذ الأساطينَ الضخمة فيما يجاور الأرض، والسوارىَ الدقاقَ فيما يعلو الحنايا والقِباب، وفى خلال ذلك صورُ المدن والأشجار بالألوان والذهب، وكتب فى حائط المسجد بالذهب على اللازَوَرْد « ربُّنا اللهُ لا نعبـد إلاّ الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الـكنيسة التى كانت فيه عبدُ اللهِ الوليدُ أميرُ المؤمنين فى ذى الحِجّة سنة سبع وثمانين »[٤].

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خُطْوة أو ثلثمائة ذراع،[٥] وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خُطْوة. وأبوابه أربعة. أولها الباب الشرقى ويعرف بباب جَيْرون، وعليه عمودان من الحجر فى غاية الافراط فى الطول والعرض، يقال إنهما من بقـايا الكنعانيين،[٦] إذ ليس فى وُسْع أهل هذا الزمان قطعُهُما ولا نقلُهما. ثم البابُ الشمالى ويعرف بباب الناطفيين، وكان مدخَل الـكنيسة قديماً. ثم البابُ الغربىّ ويعرف بباب البريد، ثم البابُ الجنوبى ويعرف بباب

---

(١) المسعودى ٢ : ١١٩ (٢) ياقوت ٢ : ٥٩٥ (٣) ١٢٧ وياقوت ٢ : ٥٩٣ (٤) القزوينى وياقوت والمسعودى. (٥) ابن بطوطه ١ : ١٩٩ (٦) القزوينى ١٢٧

الزيادة وهو يُفْضِى بالخارج منه إلى دار معاوية [١] المعروفةِ بالخضراء، وكان قد نزلها مَرْوان بن الحكم بعد واقعة مَرْج راهط كما هو معروف. وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التى اتخذها معاوية (رضى الله عنه) عندما كان للمسلمين نصفُ الكنيسة، وتعرف بالمقصورة الصحابية، وهى أول مقصورة صنعت فى الاسلام،[٢] بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه فى أوقات الصلاة كما اغتالوا علياً عليه السلام، فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف، [٣] والى جانب هذه المقصورة خزانة مغشّاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذى وجّهه عثمان بن عفان رضى الله عنه الى الشام، [٤] وأخرج الىّ منها صاحبُ الوقوف خاتَماً من الفضة للوليد بن عبد الملك، قد نُقِش عليه «ياوليد إنك ميت ومحاسَب»، وآخرَ لأخيه سليمانَ وكلماته «آمنت بالله مخلصاً، [٥] فأخذتهما لأُطْرِف بهما المأمونَ عند عودتى الى بغداد ليضيفهما الى ما لديه من خواتم الخلفاء، وعلى هذا الجامع قبة دَوْرها ثمانون خُطْوة، عليها رَصاص يمتد منها الى أن يغطى سطوح الجامع كلَّها بألواح طولُها أربعةُ أشبار فى عرض ثلاثة، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة. وهيئة السقوف من الخارج هيئة نَسْر قد نَشَر جَناحيه، وكأنما القبة رأسُه، وهى فى سموٍّ الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دِمَشْق. أما صحن المسجد فانه من أجمل المناظر، وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم، ورسومٌ بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك

---

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١ : ١٩٩
(٣) الفخرى ١٢٩ (٤) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ (٥) المسعودى ٢ : ١١٩ والخميس ٢ : ٣١٤

مُجْتَمَعَ الدمشقيين ومتنزَّهم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرءون ويتحادثون .

ولهذا الجامع ثلاث صوامع [١] واحدة بالجانب الشمالىّ وهى مُذْهَبَة من أسفلها إلى أعلاها ، [٢] وفيها مقاعد ومجالس ، واثنتان بالجانب الغربى وإحداهما أكبرُ الصوامع الثلاث . وقد وجدت فى أروقته ودهاليزه وصَحْنه وفى المساجد المتشعبة منه ماء يجرى بلا انقطاع ، وشاهدت فى البلاط القبلىّ قُبالةَ الركن الأيمن من المقصورة الصحابية تابوتاً معترضاً من الأسطوانة وفوقه قِنديل موقَد أبداً فى الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ، [٣] ومن حوله عُمُد عجيبة قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تتخيلها العين منزَّلة فيها بأيدى الصناع ، إلى غير ذلك من المحاسن التى حواها هذا الجامع المبارك ، وعظُمت عن أن تحاط بوصف ، فانى لأحسَب الزائر لو تردد إليه زمانَه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبلُ [٤] من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسَب أنه لا يزوره أحد الا وهو يجدّد الدعاء لبانيه [٥] وإن لم يكن له ميلٌ فى السياسة مع الأمويين

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رَجْعٌ الى اقتصاص الرحلة . ركبت من دِمَشق فى غد اليوم الذى سافرتْ فيه الغلمان إلى بَيْرُوت ، فوصلت فى منتصَف الطريق إلى بلدة غنّاء ذات سور قديم يقال لها بعلبك «ومنها إلى الزَّبَدانى وهى مدينة على طَرَف وادى بَرَدَى ثمانية عشر ميلا [٦] » وهى ذات أشجار وأنهار وعيون

---

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣ (٢) الشريشى ١ : ٢٠٨ (٣) ابن جبير ٥٧٥ (٤) القزوينى ١٢٧ (٥) ابن جبير (٦) تقويم البلدان ٢٥٥

وخيرات كثيرة[١] وفيها الكَرْم الخصيب . ولقد لقيت فيها فيلسوفاً من النصارى يقال له قسطا بن لوقا ، صاحبنى فى زيارة الآثار التى فيها وأخبرنى عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها فى سياق الحديث .

وقد أخذتْ هذه الآثارُ العظيمة بمجامع قلبى حيرة وإعجاباً ، وأعظمُها هيكلان كبيران أحدهما أعتقُ من الآخر[٢] وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة فى الحجر ما لا يتأتى حَفْرُ مثلِه فى الخشب ، مع ارتفاع جدرانهما وضخامة حجارتهما وطول أساطينهما وعجيب بنيانهما[٤] مما يذهل العقول تعجباً من اقتدار الرجال على مثل هذه العظائم . وقد أخبرنى قسطا هذا الفيلسوفُ أنه لا يرى إلاّ أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة فى فن الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تُقِلُّهما إلاّ أعتق من الآثار الظاهرة ، وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبَد العتيق ، ورفعوا الهيا كل الماثلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بأيدى عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ، وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنَوْها لسليمان عليه السلام كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر[٥] من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين . وانما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية ،[٦] يدلنا على ذلك ما نجد فى أطرافها من النُّقَر التى تقضى بأنها كانت تُرْفَع جرًّا بالأمراس بأن يمهد

---

(١) ابن بطوطة ١ : ١٥٨ (٢) المقرى فى ترجمة يعقوب الكندى
(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٤) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٥) نجد فى كثير من كتب العرب نسبة المبانى العتيقة الى الجن (٦) المقدمة ٣٥٨

لها فى الأرض سطح من التراب يرتفع شيأ فشيأ مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هى مرفوعة ، ثم تُجَرُّ بالسلاسل على عجلات لها بَكَرات من الفولاذ عريضةُ الأطراف حتى لا تغوصَ فى التراب صغيرةُ الجِرْم حتى تحتمل الثِّقْل ، وتكون أشدَّ من البكرات الكبيرة التى لابدّ أن تلتوى تحت هذه الحجارة الهائلة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التى يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويَبيتوا فى أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند ، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم ، فلو دعاهم حفظُ البُلْدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلافُ الألوف ، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفَالته .. فلما دانت لهم الشام وكان بَعْلُ[1] معبوداً فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى « أتَدْعُون بعلا وتَذَرُون أحسن الخالقين » بَنَوْا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصِدون به الاعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظائم الأمور ، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المَنَعَة موضعٌ فى نظر العقلاء . فهذا أحد اللولبين اللذين يُفْضيان بالراقى عليهما إلى سطح الهيكل قد أُتُخِذ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فُصِلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته ، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد أُتخِذَتْ فى أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبلٌ للهيكل ، فلو أنه أريد بها المَنَعَة لا قتضى ذلك أن تكون فى أسفل الجدار لا فى أعلاه ، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

النصف المتخذ من قطعة واحدة قائماً فيما يدانى الأرض أو يماسُّها ، حتى إذا وَهَى أعلاهُ بقى هو فى موضعه ، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مردًّا لمهاجمة العدوّ

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا فى تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل مَحَجَّةً للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهى دونه فى البهاء والاشراق مضرٌّ بالنصرانية وحابس لها عن أن تعمَّ الشام ، فعَمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر الماثل منه . وكان فى القسطنطينية بطْرك ذو عقل ودَهاء يقال له فمُ الذهب يحنا ، فأشار على القيصر أن يتخذه كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل ، فاتخذه كذلك . وفى رواية أنه أشار عليه بأن يُعْمِل فيها الفُئُوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر الى هذا الهيكل كيف تقلّبت به أغراض الأمم فقد شاده الروم الأولى لغرضهم فى الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم فى دينهم ، ثم مَثَلَت آثاره لهذا الزمان ناطقةً بعزة الله شاهدةً أن لا باقىَ سواه .

ولما انفصلتُ عن بعلبك مررت بسهل أفيحَ يقال له البقاع وعرَّجت فيه على موضع يسمى بكَرْخ نوح[1] يزعم أهله أنّ فيه قبرَ صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقرَبة من كل قرية من قُراه ردوماً قد تراكمت أمثالَ التلال كأنها من بقايا أمَّة قد خلت ، وصرفتُ من بعلبك الى بَيْروت يومين فى جبل لُبْنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميلُ الى عيون القُرَى لتنزيه النفس وإرواء الظمأ ، وإنها لكثيرة فى هذا الجبل المبارك وهى تمذَعُ فى

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

شَعَفَاته . وأقمت فى بَيْروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، رهى مدينة جليلة ، [١] على ضَفَّة البحر ، طيبةُ الاقليم ، عليها سور من حجارة [٢] تَحُفُّ بها عِمَارة مشتبكة فى سفح لبنان كان يستجيدها الوليد ابن يزيد المقدَّمُ ذكرُه فيقول . [٣]

ربَّ بيت كأنّه مَتْنُ سهم سوف نأتيه من قُرَى بَيْروت

ثم يقول [٤] والنفسُ تائقه إليها والقلب مشغوف بحماها

ألا يا حبّذا شخصٌ حِمَى لُقياه بيروتُ

وهى فُرْضة دِمَشْقَ ومعظم الشام ، وفى مَرْساها مجْتَمَع كثير من سفن التجارة ، ويُجلب منها حديد [٥] لُبنان الى ديار مصر ، وفى شرقيّها نهر يغلُظ فى الشتاء قد بَنَى له قدماءُ أهلها قناة [٦] يُجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غربيّها مشهد الأَوزاعىّ (رحمه الله) ، وميلاده ببعلبك [٧] وهو فخر المحدّثين من أهل الشام ، وله فى علم الحديث [٨] مدوّنات جمع فيها الصحيح المروىّ عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهلُ تلك البلاد

وقد كان لبيروتَ شأن عظيم فى غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم باعباء الدول الجِسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية فى الرواج ، حتى إنها دعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازلُ وهيا كل هجروها بعد الفتح وجلَوْا عنها جلاء لم يرجعوا بعده .

---

(١) تقويم البلدان ٢٤٧ (٢) الادريسى (٣) الأغانى ٦ : ١٢٢
(٤) الأغانى ٦ : ١١٧ (٥) الادريسى وابن بطوطة ١ : ١٣٣ (٦) تقويم البلدان ٢٤٧ (٧) أبو الفداء ٢ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠ (٨) ابن خلكان

إلى أن عاد إليها العمران فى الاسلام بقيام الخلافة فى دِمَشق ، إذ كانت المدن لا تصلُح إلاّ بقيامها بالملك أو قيام الملك فى جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنتُ قد شهِدت لهذه المدينة بطيب الهواء فانى لا أنكر ما فى ريحها الشمالية من الرطوبة التى تحدث فى الرأس ألَماً لا يشعر به إلاّ الغريب الزائر ،[1] غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعدَّه من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بَيْروت ريح الصَّبا التى تنعش النفس ، تأتيها من ناحيَة الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، فربما وجدتَ هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفى ظنى أنه إذا توافر العمران فسيُضْطَرُّ الناس أن يحدثوا بناءهم فى هذا الموضع إذ هو أقرب وجهاً إلى نسيم الصَّبا منه إلى ريح الشمال .

وركِبت البحر من هذا الثغر المحروس فى أول يوم من شعبان ، وجَرى مركَبنا بهواء شمالى لطيف ليس بالثقيل ولا بالخفيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ، واستمر سيرنا فى البحر نحو عشرين يوماً إلى أن أقبلنا على مالِطَةَ ، وهى جزيرة فى أول بلاد الفَرَنْجة ، وبها كنائس معظَّمة لأمم النصرانية ، فلبِثنا يومين فى مَرْفَئها نتسوَّق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية فى ساحل الديار الرومية إلى غرب اللنبردية [2]

---

(١) القزوينى (٢) تقويم البلدان ٢١٩

لقاء القيصر والمنصرَف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئاً من زخارف البنيان . ولا وجدنا فى أهلها أثراً من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم فى ولاية هذا الأنبرذور أهلَ جاهلية وخشونة ، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم ، تُجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميراً فوَّض اليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير فى الأسلام ، وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولَّوْن المناصب فى ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وليس فى مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصرٍ مبنى على عَلْياء تُشْرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكناً لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسةٍ عليها قِبابٌ مرفوعةٌ نَصَبها هذا الأنبرذور الذى نصَّرَ أمته ونَصَرَ القِسِّيسين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بعين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم فى أموره ويرجع فى السياسة الى رأيهم ، اذ كان القوم من دونهم همجاً لا يعرفون القراءة ولا أُميطت عن بصائرهم غِشاوةُ الجهل ، ومعظمهم عبيد للمتموِّل من التجار ، يموتون جوعاً بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق نعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كِسْرة تُمسك رَمَقَهُم ، ، فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعايش بين أيديهم واحتذائهم أشرفَ السُّنن العادلة ؟ فكأن الله تعالى قد خصّ هذه الأمة من الفضل والنعم [1]

---

(١) المسعودى ١ : ٢٣٦

بما حرّم منه أمم المغرب . فإن العرب أحلى منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأحزم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأثرى للفخار وأشرف ، وأنقى للعار وآنف . وحسبي بما نقلت اليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلاً على ما ركّب الله فى طبائعهم من الأنفة وعزة النفس ، وما آتاهم الأسلامُ من المحاسن التى تشرّفهم وتُعلى ذِكرهم :

وقد شاهدت فى ديار القوم كثيراً من الأمور التى أخاف إنْ أتيت على بيانها أن تجرّ الحديث إلى الخروج عما أنا بصدده من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتِهم غيرَ منطبقة على عادات الشرقيين ، بل كثيرُها مستهجن أو باق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين فى الأسواق بلا نقاب ، ويجلسن مع الرجال سافراتِ الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الاعراض صيانتَها فى المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بينى وبين الأمير الذى صحبنى فى مرسيلية مذاكرةٌ فى هذا الأمر ، وكان يظن أنّ المرأة ذليلة فى مِلّتنا وأنّ منعَ ظهورها إلى الرجال ناشىء من جهة استصغارها وتحقيرها ، فذكرتُ له أنّ الله تعالى قد وفّاهن حقوقهن [1] فى الدنيا والدين ، ووعد الصالحات منهن نعيما مقيما فى الآخرة ، وأمر بأن تجرِى عليهن الوراثة التى لم تكن لهن قبل الأسلام

وكان أمير مرسيلية عند ما اتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج إلىّ الجند ولم يترك شيئاً من مظاهر الاحتفاء إلاّ أجراه فى سبيل تعظيمها وإجلالها ، فلما سألته عن الأنبرذور أخبرنى أن له غيبة فى رومة لأمر

---

(١) قد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله ان لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن حقاً الى أن قال فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً .

بينه وبين الباب [1] الذى هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكُث عنده أربعين أو خمسين يوماً ، فاستطلت هذه الغَيْبَة منه ، وخفْت فواتَ الحج إن بقيت منتظراً رجوعه ، فرأيت أن أوافيَه برومة ، فركِب معى من لدن الأمير رسولٌ إلى القيصر وجزنا عُباب هذا البحر الذى لم تَجُزْه بعدُ سفن المسلمين إلى أن مَنَّ الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يوالينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذورَ خبرَ قدومى من لدن الرشيد فسيّر الىّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته ، فساروا بى إلى حيث هو مقيم فى دار الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والاحكام ، وعُنِىَ البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين بتجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن . وكنت حين جاوزنى الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعبّاد قد طحنتهم رحى المنون ، فلما دخلت عليه وجدته جالساً على مِنصَّة من فوقها قبةٌ عليها كتابة بالروميّة ، وهى مجلّلة بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصّع باللؤلؤ والياقوت والزَّبَرْجد ، وفى يده قضيب الملك ، وعليه حلة من الوَشْى كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحراب والأعمدة ، وبينهم جماعه من العُلُوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالقة والرهبان المقدَّمين قد لبسوا الوَشْى الذى يقيمون به الصلاة فى أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نر مثلَه على من يجاورنا

---

(١) كنية البابا بالباب مذكورة فى تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البائين وتشديدهما .

منهم فى المشرق حسناً يُعْشِى الأبصارَ بريقُه ولمعانه .

فلما مَثَلت بين يديه قمت بما وجب علىَّ من الاجلال له و بلَّغته سلام الرشيد على لسان المترجم ، فكلَّمنى بترفع الملوك الذين تُوقع جلالتُهم مهابة فى قلوب الوافدين عليهم ، ولكنْ من غير أن يكون فى نفسه جَبَروت ، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا ، وكان الأمراء والرهبان يَمُدُّون الىَّ أعناقهم و يحدِّقون فىّ بأبصارهم كأنهم لم يروا من قبلى مشرقياً على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى التَرْجُمان أن يذكر له هديّة الرشيد وانه يُطْرف بها جلالته لارتباط المودة بينهما ، فشكرنى على ذلك مرة ثانية ، ثم استدنانى منه وأمرنى بالجلوس ، وأخذ يسألنى عن رحلتى إليه عَطْفاً مال اليه بعد الترفع الذى استقبلنى به ، فكنت أجيبه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة . ثم سألنى عن الدولة فى المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر للرشيد فى صفاء ، فأجبته بما فى الأشارة إليه تحفظ عن ذكْر بنى أميَّة ، والملأُ من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألته أن يأذن لى بالدخول عليه فى خَلْوة وانفراد فأجابنى إلى ذلك وهو يظهر ائتناسه بى وتوسمه الخير مما وقع بينه و بين الرشيد من التوادّ .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتى أميراً من عظماء دولته ملك قلبى برقة نفسه ، وأحسن مُنْقَلَبى بلطيف أنسه ، وأحلَّ كرامتى عنده بالمحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً فى رومة من قصر مُنيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء إلاّ سار بى اليه وأرانيه ليعظِّم فى عينى أمر الفَرَنْجَة ، فما كنت لأُكْبِرَ من مبانيهم إلاَّ الكنائسَ التى

يعظمونها ويتأنقون فى تنميقها بالرسوم التى تتناهى فى الحسن وجمال الزينة، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشارقة [١] الذين ينهاهم الدين عنه، [٢] وإنما يكونون فى حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصراً مزخرفاً كما علمت، إلاّ أنه لا يصح انفرادهم بالحِذق فيه دونهم لبطلان الموازنة فيما يتركه فريقٌ ويأخذ فيه الآخرون. وفى نفسى أن المسلمين لو لا نَهْىُ الشرع عن التصوير ما بعُد أن يفوقوا فيه الروم، فقد رأيت من عمل الرسّامين فى المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون فى جودة عمل الروم. ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة وهى تمثل رجالا ونساء وأولاداً بحيث إنّ الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى، حتى لقد يميز بين ضحِك السرور وضحك الشماتة، [٣] وهذه غاية فى المهارة لم يبلغها إلاّ كبراء أرباب العقول من صناع الروم. وأعظم ما شاهدت من كنائس رومة بَيْعة بطرس حوارىّ المسيح عيسى عليه السلام، وهى من عجائب الدنيا، [٤] وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب [٥] ما أذكرنى جامع دمشق فى بهائه وجماله، وهى أبدع ما شاهدته من مبانى الروم، وامتدادُها مع مقصوراتها نحوُ ستمائة ذراع [٦] فيما سمِعت، وامتدادُ

---

(١) لم يكن للمشارقة فى زخرفة مبانيهم الا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها أشكالا تقيد الابصار فى الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم فى الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التى اتخذوا فيها طريقة التزويق لتملأ العين بهجة وارتياحاً. (٢) المقدمه ٢٢٨

(٣) القرمانى ٥ : ٢٢٤ (٤) المقريزى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥

(٥) القزوينى (٦) تقويم البلدان ٩٩

الكنيسة يبلُغ نصفَ ذلك ،[١] وهى مسقوفة بالرَّصاص مفروشة بأفخر أنواع الرُّخام . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للمعمودية يجرى فيه الماء دائماً من نهر يشقُّ هذه المدينة[٢] كما تشق دِجْلَةُ مدينة الزَّوْراء . وفى صدرها كرسىٌّ مذهب يجلس فيه الباب فى أيام المواسم والأعياد . وتحته باب مُصفَّح بالفضة[٣] يوصل إلى سِرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ، ولكنى علِمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قُبِضَ فى أنطاكية لا فى رومة ، وأن كرسىّ أنطاكية عندهم هو المقدَّم على كرسى رومة ، وفى هذه الأقوال نظر لا محل لذكره فى هذا الكتاب . وخارجَ الكنيسة عمودٌ من رُخام قائمٌ على قواعد أربع من النُّحاس ، وفى أعلاه عمود من الصُّفْر قد رفعت على رأسه كرة مُذْهبة يراها كل من فى رومة كأنها عَلَم لموضع الكنيسة .

ولما كان الغد أذِنَ القيصر لى بالدخول عليه فلقيته فى ثياب من الديباج وعليه تاج من الجوهر أعظمُ مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أنْ يُظهِرَ لى عظمَ سلطانه[٤] بما تحوى خزائنه من الجوهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس بلّغته ما أوصانى الرشيد بتبليغه من أمر أميّة بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم ، ولكن بإيجاز أبعدتُ فيه التأكيدَ ليكون له إشارةٌ إلى المصلحة

---

(١) ابن خرداذبة ٩٣ (٢) تقويم البلدان ٢١١ (٣) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة فى أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية (٤) ذكر صاحب الأغانى ٢ : ٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله الى قيصر الروم حمله على البريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك

ليس غير، فخاطبني بما يقرُب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزه الله)، فأكبرتُ ذلك من غير أن أعجَب منه، اذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد. وتتلاقى ولو على بعد البلاد. ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكّر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لي إنّ من الناس من هم أقرب منهم ومن بني أمية اليه. ثم انبسط له مجال الحديث فقال إني لأرى الاسلام اليومَ أقلَّ اجتماع عصبةٍ منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب. على أني أرى دولة صاحبك أعظمَ هذه الدول وأوسعها رُقعةَ مملكة. وأما أمر الأمويين فانه وعر المرام لا يناله الأعلى تمادي الأيام. اذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن رد العدوّ، فلو شدّ صاحبُك عليهم لحوّطوه بأطرافهم وقاتلوه بغرض واحد تدعوهم اليه الحالة التي يقعون فيها جميعاً من الغَرَر والاشراف على الخطر، ولقد كنت أرى تغلُّبه قَسْراً على الأندلس من قبل أن يوافيَها الأمويون، وقد كانت قضاتها على أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الجيرة عليهم، أما اليوم وقد وافَوْها بالأموال[1] فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزقة من الرجال « وهم الذين يُكرِهون أنفسَهم للحروب »،[2] وربما تعذر عليه مداهمتُهم من المغرب لما هو ناشب من الفُرْقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوّان من الأمويين وأهل البيت جميعاً، وقد قيل في الأمثال « إن الزِّئبرَ إذا جمع منه حبل يوثَق به الفيل المفتلم » ثم إنه ذكر لي عند ما استنهضته الى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يجب أن

(١) المقدمة ١٥٨ (٢) المسعودي ٢ : ٤٠٩

يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة ، وأنه يوجّه همتة إلى مناصبة الملوك الذين هم فى ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ماوقع بينى وبينه من الحديث ، وقد قال لى فى خاتمة المفاوضة قل لأمير المؤمنين إنى عُنيتُ بحاجته وسأكون ظهيراً له فيما يروم واقرأ عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منهـا إلى ما وراء التوادّ الظاهر من السياسة كما رأيت ، ولبثت فى رومة ثلاثة أيام متواليات. وكان الانبرذور قد اتخذ لى وليمة دعا اليها عظماء دولته ، وتكرم علىّ بخاتم من الياقوت فى سبيل التعطف ، ثم طلب الىّ أن آخذ الطريق الى تونس لأوجّه اليه منهـا برِمّة عظيم من عظماء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ، (١) فأجبته بالامتثال الى ذلك ، فسيّر فى صحبتى مركباً من أسطوله ليحملها اليه وغادر مركبنا ساحلَ رومة فى يوم شديد الحر من شهر رمضان كأنّ الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضاً وقد حَقّ تسميته برمضان من الرَّمَض وهو شدة الحرّ (٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على مَتْن السفينة وبينى وبين تونس مسيرةُ يوم وليلة . واللهَ أسأل أن يبلغنا المقصدبالسلامة وهوالكفيل بالتيسير والتسهيل لاربَّ سواه .

---

(١) هو قبر يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية (٢) الكنز ١٤٦